الشعر في السودان

للأستاذ علي العماري

(تتمة ما نشر في العدد ٧٨٧)

يقول الدكتور زكي مبارك في تقدمته لديوان الشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير : « فما في بلاد الله مسلمون أصدق من مسلمي السودان ، والإسلام قوة روحية سامية لا يمن الله بصفائها على غير المصطفين من عباده الأصفياء . يضاف إلى ذلك أنه عند السودانيين فضيلتين جوهريتين : فضيلة الكرامة ، وفضيلة العدل ، وتتمثل الأولى في اعتزازهم بأنفسهم اعتزازاً هو الغاية في شرف النفس ، أما الفضيلة الثانية فتتمثل في صدق المعاملات ؛ فمن النادر جداً أن يحتاج من يعامل تجارهم الكبار إلى الاستعانة بالقضاء » . ثم يقول : « المسجد في السودان هو المسجد ، ورواده هم المؤمنون ، ومسلمو السودان هم البقية الصالحة من رواد مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أجل هذا أغناهم الله بالمعاني ، وأنزلهم منازل الكرماء » .

وأنا أعرف أن الدكتور زكي لم يهبط أرض السودان ، ولم يقع نظره ومسامعه بمظاهر التدين عند مسلمي السودان ، وإني محدثه — لو كان يسمع الآن ويقرأ — حديث الخبير ، فما راء كمن سمع :

التدين في البلاد السودانية ظاهرة واضحة بارزة تراها في كل ما تقع عليه عيناك ، فالأمانة الطبيعية غير المتكلفة ، والأمن في الأنفس والأموال ، وهذه الصلوات الخمس التي تقام جماعات في أوقاتها ، في الأسواق العامة ، وأمام حوانيت التجار ، وكم ملأني غبطة وإعجاباً منظر المصلين في ساحة المحطة الوسطى بأم درمان ، أو أمام حوانيتهم ، يؤمهم أحد التجار ، وهم بملابسهم البيض النقية خاشعين خاضعين لله ، ثم الكرم الذي لا حد له ، والإجلال لعلماء الدين ... كل هذه مظاهر محببة للتدين العميق في نفوس القوم

ويظهر هذا التدين بصورة واضحة في شغف السودانيين بالمدائح النبوية ، فهي أناشيدهم يترنم بها عالمهم وجاهلهم ، ويستمعون إليها ، ويستمتعون بها ، وربما كان من المألوف إذا دعيت إلى

وهي خاوية على عروشها ويقول : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً »

وصار الناس منه على شفا الحاقدين ، فما أدركت الشفقة عليه أحداً سواي — لا لأني أقرب رحماً ، ولا لأني ألين قلباً — وإنما لشعور عنيف تملكني يومئذ وأخذ يهتف بي بلا انقطاع :

إن هذا لضحية ! ولكن ويح نفسي إن بك مثل هذا الشهوان ضحية ، فمن الجزار الذي ضحاه ، وأين الساطور الذي ذبحه ؟

وما عرفت الجواب إلا حين جمعني بهذا المخلوق صلاة الجماعة فرأيته يدخل أول الناس ويبقى في تضرع واستغفار آخر الناس ، فراعني مظهره وعجبت له فدنوت منه وقد استبد بي الفضول ، ولم يحوجني هو إلى مقدمة لا تجدي فقد فهم غرضي فالتفت إلي وكأنما شمر نحوي بالاطمئنان وحدثني وهو يشرق بالدمع حديثاً كشف عني الغطاء ، فصار بصري فيه حديداً ، وحكمي عليه سديداً .

* * *

وقلت لصاحبي وأنا أصف له الرجل :

— « إنه لضحية يا صاح ، بيد أنه ضحية نفسه وهواه ، فنفسه كانت جزاره الذي ضحاه ، وهواه كان ساطوره الذي ذبحه ، فهو في أيام فقره وبؤسه كان قانعاً قناعة الحروم ، وفي أيام غناه وسعده كان بطراً بطر المنهوم ، وهو لولا استغناؤه لما طغى ، ولولا تخمته لما ثارت شهواته فبغى !

وهكذا الإنسان يا صاحبي يقوده الطمع فيردى ، وتعميه الشهوة فيخزى ، ويسمع بالعبرة فلا يخشى » !

* * *

ولكن هذا الرجل وعدني في بيت الله وهو ما زال عبران أن يتوب ، ولست ارتاب لحظة في أنه قد أناب ولكني أتساءل ما تنفع التوبة إذا لم تكن إلا في ساعات الحاجة والحرمان ؟

(طرابلس الشام) صبحي إبراهيم الصالح

وليمة أن يكون من تتمة الإكرام أن تسمع (مديحاً). والمداحون منهم المحترفون، وهؤلاء يدعون في المجتمعات العامة وفي المناسبات الدينية، كليلة الإسراء، أو ليلة القدر، وكثير من البيوت — هنا — تحيي ليالي رمضان بالمديح، ومنهم من دفعته رغبة شخصية، وآنس من نفسه جمالاً في الصوت، وقدرة على التنغيم والتلحين، وهؤلاء — يمدحون — غالباً في المجالس الخاصة. والمدائح — في أكثر الأحايين — بالشعر الذي قيل في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمداحون يعتمدون اعتماداً كبيراً على (المجموعة النبهانية) كما يعتمد أهل الحلات والبوادي على أشعار عامية هي غاية في جودة المعنى، وحسن الأداء، ولها تأثير قوي، يهز المشاعر، ويحرك العواطف، وأشهر هذه المجموعات (ديوان أبي شريعة)، ولهذا الديوان ميزة أخرى، ذلك أنه وثيقة هامة لمن يريد أن يدرس اللهجات العامية في السودان، ونصيحتي لكل من يريد أن يعالج هذا البحث أن يدرس هذا الديوان، وأن يدرس (طبقات ود ضيف الله) فإن فيهما غناء أي غناء في هذه الناحية.

ولا يفوتني أن أذكر أن المداحين المحدثين قد أخذوا ينحرفون عن إنشاد المدائح النبوية، ولكنهم لم ينحرفوا كثيراً، فهم يتغنون بالقصائد التي تتصل بالعروبة والإسلام، كأندلسية شوقي، ورثاء حافظ للشيخ محمد عبده، ووقفة على طلل لفنيم، وإن كنت سمعت في أيام العيد مداحاً يتغنى بقصيدة المتنبي (من للجآذر في زي الرعابيب). وقد — والله — أجاد، لكنه ساءني جداً حين طلبت إليه أن يسمعنا مدحة نبوية، فقال إنه لا يحفظ من هذا النوع شيئاً.

ذكرت هذا كله لأمهد به للحديث عن غرض من أغراض الشعر في السودان، هو غرض غالب ذائع، ذلك هو المدائح النبوية، وإذا كنت في مقالي السابق قد وصفت الشعراء بالتقليد للشعر القديم، فإني أقرر هنا أنهم أصلاء في هذا الغرض، وإن كل ما قالوه عن شعر فيه، فهو استجابة لعواطفهم الدينية، واستجابة لبيئاتهم التي أسلفت الحديث عن مظاهر تدينها، ولم أقرأ لشاعر هنا لم يجعل أكثر شعره في المدائح، وإن منها لشعراء نظموا دواوين كاملة في هذا الغرض كديوان (روض الصفا في مدح المصطفى) للعالم الكبير الشيخ أبي القاسم.

ولم يفت الشعراء أن يتحدثوا عن تدينهم، واعتصامهم بالله، وبعدهم عن طرق الغواية والهوى، وحبهم في مديح الرسول، وارتياحهم له، يقول الشيخ الطيب أحمد هاشم:

إن سار غيري للهوان وللهوى ... فإلى العلا والمكرمات أسير
أو سامر الناس الحسان جهالة ... فسميري القرآن والتفسير

ويقول الشيخ علي الشامي:

إن طال ليلي فطول الليل يؤنسني ... إن كان غيري طول الليل يضجره
فإن لي في ظلام الليل مؤثرة ... هي الصلاة إلى المولى فتقصره

ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين[1]:

إني لمن معشر كانت شمائلهم ... محبة المصطفى في السر والعلن
يلين قلبي لذكراه إذا تليت ... ويقشعر إذا ما رتلت بدني

كما لم يفتهم أن يتحدثوا عن زهدهم في الدنيا، ورضاهم فيها بالقليل، وحثهم الناس على القناعة، والبعد عن سفاسف الأمور وصغائرها؛ وهذا شاعر قديم عاش في السودان منذ قرنين من الزمن هو الشيخ فرح تكتوك، يقول صاحب (شعراء السودان)[2] في ترجمته: «هو ولي صالح، وشيخ من الشيوخ التقاة وشاعر من كبار الشعراء، له من صفاء سيرته وسريرته ما يشهد بصلاحه وتقواه، وهو من قبيلة عرب البطاحين المشهورة في السودان، له في الحكم آيات بينات، وقصائده كلها في الوعظ والإرشاد، قلما ينظم في موضوع آخر إلا ما دعت إليه الضرورة». ومن شعره:

يا واقفاً عند أبواب السلاطين ... ارفق بنفسك منهم وتحزين
إن كنت تطلب عزاً لا فناء له ... فلا تقف عند أبواب السلاطين
واعلم بأن الذي ترجو شفاعته ... من البرية مسكين ابن مسكين
خل الملوك بدنياهم وما جمعوا ... وقم بدينك من فرض ومسنون

---

(١) هو حفيد الولي الشهور بالدامر، وهو شاعر رقيق، وهو يرجع سبب نبوغه في الشعر إلى أساتذته المصريين، ويتحدث عنهم في كل مناسبة، ويشيد بفضلهم، ولا سيما الشيخ عبد الرءوف سلام.

(٢) مجموعة وضعها الأستاذ سعد ميخائيل، تذكاراً لإقامته في السودان، واعترافاً بالجميل، وبالأخلاق الكريمة التي نعم بها أثناء إقامته في السودان، وقد ترجم فيها لكثير من شعراء السودان، وحلاها بصورهم، وذكر مختارات من أشعارهم.

واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
مالى أذل لمخلوق وأسأله ... ولو سألت الذى أعطاه يعطينى
فلقمة من طعام البر تشبعنى ... وجرعة من قليل الماء تروينى
وقطعة من قليل الثوب تسترنى ... إن مت تكفننى أو عشت تكسونى

وقد تناولت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأكثر القصص التى ذكرت فى السير ، كما تناولت تمجيده وتمجيد أصحابه رضوان الله عليهم ، وتتزاحم علينا الأشعار حين نريد أن نختار منها فلنكتف بقليل من كثير .

تناول الشاعران عبد الله حسن الكردى ، وجلال مجذوب قصيدة الإمام البرعى التى مطلعها :

خل الغرام لصب دمعه دمه ... حيران توجده الذكرى وتعدمه

فخمساها تخميسين أعجبانى غاية الإعجاب ، وبهذه المناسبة أقول أن التخميس والتقطير من الأمور الشائعة فى الشعر السودانى ، فمن تخميس الشيخ المجذوب :

يا من تطاول فى وصل تنعمه ... ونام ملء جفون العين نومه
أهنأ فما أنت صب القلب مغرمه ... (خل الغرام لصب دمعه دمه
حيران توجده الذكرى وتعدمه)
شتان بين سمير الليل ساهره ... ونائم غط من بدء لآخره
أتعذل الصب يشكو بُعد هاجره ... (عذلته حين لم تنظر بناظره
ولا علمت الذى فى الحب يعلمه)

وينتهى من هذا الغزل إلى المديح فيقول :

لا تستوى فى المدى الأنوار والظلم ... ولا السميع كمن فى أذنه صمم
أتاهم المجتبى شمساً وعنه عموا ... (حال السها غير حال البدر لو علموا
بل أهل مكة فى طغيانهم عمهوا)
يا ضيعة العمر يا عظمى خسارته ... إن لم أشد رحالى نحو دارته
ما كل موصى وفىٌّ فى سفارته ... كم أستنيب رفاقى فى زيارته
عنى ، وما كل صب القلب مغرمه)

ويقول الكردى :

أهوى النبى وأرجو من كرامته ... خيراً ، وأطمع فى عقبى شفاعته
ومن صبابة قلبى فى مقامته ... (كم أستنيب رفاقى فى زيارته
عنى ، ، وما كل صب القلب مغرمه)

ويتصل بهذه المدائح شعر كثير فى ذكرى المولد النبوى ، وفى ذكرى الهجرة ، وفى ذكرى غزوة بدر ، وفى المناسبات الإسلامية المختلفة ، وليس أدل على سيادة هذا الغرض وقوته ، من أن شعراء غير مسلمين يقولون فى الأغراض الإسلامية ، ومن ذلك قصيدة الشاعر صالح أفندى بطرس فى الحث على العناية بجامع أم درمان ، ومنها :

يا مسجداً مطلت بنوه بعهده ... حتى غدا وهو الحسير المدمم
بدأوك جوداً بالصنيع وأحجموا ... ما كان أولى أن ذاك يتمم
بينا تشيد إذ وقفت كأنك الطـ ... ـلل المحيل عفاه هام مرهم
أترى المساجد فى القديم تشاد فى ... أبهى الشكول فمذهب ومرخم
وتراك تعجزهم بأن تبنى بآ ... جر وتسقف (بالمروق) وتردم

على العوارى
مبعوث الأزهر بالمعهد العلمى بأم درمان

محمود الخفيف
مؤلف أحمد عرابى ، وإبراهام لنكولن

يقدم

تولستوى

قمة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

اقرأ فى تفصيل رفيع : حياته وفلسفته فى الدين والاجتماع والسياسة

ثم اقرأ : خلاصات وافية ونقدا مفصلا لقصصه الكبرى والصغرى وفى مقدمتها : « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » و « البعث »

واقرأ : كيف كان شهيد الإنسانية غاندى تلميذاً « لتولستوى » ومنفذاً لمبادئه ؟

أصدرته أخيرا فنيا مطبعة الرسالة

يطلب من دار الرسالة وثمنه ٤٠ قرشاً عدا البريد